حاجته فهو بليغ لم يعنِ أن كل من أفهمنا من معاشر المولَّدين والبلديين قصدَه ومعناه بالكلام الملحون والمعدول عن جهته ، والمصروف عن حقه ، أنه محكوم له بالبلاغة كيف كان، بعد أن نكون قد فهمنا عنه . ونحن قد فهمنا معنى كلام النبطي الذي قيل له : لمَ اشتريت هذه الأتان ؟ قال : أركبها وتلَد لي . وقد علمنا أن معناه كان صحيحاً . وقد فهمنا قول الشيخ الفارسي ... وقد فهمنا قول الخراساني ... فمن زعم أن البلاغة أن يكون السامع يفهم معنى القائل جعل الفصاحة واللكنة، والخطأ والصواب، والإغلاق والإبانة، والملحون والمعرب، كله سواءً وكله بياناً ، وكيف يكون ذلك كله بياناً ، ولولا طول مخالطة السامع للعجم وسماعه للفاسد من الكلام لما عرفه ، ونحن لم نفهم عنه إلا للنقص الذي فينا . وأهل هذه اللغة وأرباب هذا البيان لا يستدلون على معاني هؤلاء بكلامهم ، كما لا يعرفون رطانة الرومي والصقلبي ، وإن كان هذا الاسم إنما يستحقونه بأنا نفهم عنهم كثيراً من حوائجهم، فنحن قد نفهم بحمحمة الفرس كثيراً من حاجاته ، ونفهم بصغاء السنور كثيراً من إرادته ، وكذلك الكلب والحمار والصبيّ الرضيع . وإنما عنى العتابي إفهامَك العربَ حاجتك على مجاري كلام